



@Tafsircenter

من بحوث المؤتمر الدولي الأول لتطوير الدراسات القرآنية

نحو دراسة علمية لتاريخ التفسير وتطوره

د. فريدة زمرد

www.tafsir.net

مَرْكَزُ تَفْسِيرٍ لِلْكِتَابِ الْقَرَنِيَّةِ
Tafsir Center For Qur'anic Studies



نحو دراسة علمية لتاريخ التفسير وتطوره

بحث مقدم

للمؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية

١٤٣٤/٤/٦ - ١٤٣٤/٢/١٦

إعداد

د. فريدة زمرد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السيرة الذاتية

بيانات شخصية

الاسم: فريدة زمرد

المؤهل العلمي: دكتوراه في الدراسات الإسلامية

التخصص: التفسير وعلوم القرآن.

المسمى الوظيفي: أستاذ التعليم العالي.

المؤسسة: مؤسسة دار الحديث الحسينية للتعليم العالي والبحث العلمي، الرباط.

البريد الإلكتروني: f_zmarrou@hotmail.com

المهام والخبرات العلمية

- أستاذ التفسير وعلوم القرآن بمؤسسة دار الحديث الحسينية للدراسات العليا
والبحث العلمي.

- عضو المكتب التنفيذي للرابطة المحمدية للعلماء، ورئيس لجنة الدراسات
والأبحاث بها.

- عضو هيئة تحرير مجلة "دراسات مصطلحية" التي يصدرها معهد الدراسات
المصطلحية بكلية الآداب، فاس.

- مشاركة فعالية في عدد من الدورات والندوات والملتقيات والمشاريع العلمية،
على المستوى الوطني والدولي.

المؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية

المؤلفات المنشورة:

- مفهوم التأويل في القرآن والحديث، مطبعة أنفوبرانت، فاس، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠١ م، والطبعة الثانية سنة ٢٠٠٥ م.
- معجم المصطلحات القرآنية المعرفة في تفسير الطبرى / مطبعة أنفوبرانت، فاس، ٢٠٠٥ م.
- أزمة النص في مفهوم النص عند نصر حامد أبو زيد / مطبعة أنفوبرانت، فاس، ٢٠٠٥ م.
- بالإضافة إلى مقالات وأبحاث نشرت بعدد من المجلات العلمية.

ملخص البحث

درجت الدراسات المهمة بتاريخ التفسير على الاقتصار في هذا التاريخ على المستوى الأفقي الذي يرصد حركة العلم وتطوره عبر الوصف والتعريف بالمراحل التي مر بها وبأعلامه ومدارسه واتجاهاته ومصنفاته. وغاب عن هذه الدراسات الاهتمام بالمستوى العمودي من هذا التاريخ الذي يبحث في تاريخ النظريات والمناهج التفسيرية وتطورها، وفي القضايا والمفاهيم والإشكالات العلمية التي تم تداولها في مؤلفات العلم في عصور مختلفة...

وعند التأمل في التاريخ العمودي لعلم التفسير، وبالنظر إلى خصوصية هذا العلم كونه يقدم عصارة المزاج بين منهج تحكمه قواعد وقوانين، ونص يكتنز من المعاني والدلائل والأحكام والحكم ما يستمر ويتجدد في الزمان والمكان؛ نجد أنفسنا أمام مستويين من التاريخ: تاريخ النظريات والمناهج التفسيرية، حيث يُرصد التطور الحاصل في مناهج التفسير وقواعده وقوانينه عبر العصور، وتاريخ القضايا والمفاهيم العلمية، التي عالجها المفسرون في كتبهم...

وإذا كان التاريخ للنظريات والمناهج التفسيرية يفيد في رصد جهود العلماء في وضع أسس نظرية للتفسير، وتطور هذه الجهود، وما يحتاج منها إلى تتميم أو ترميم أو إضافة؛ فإن التاريخ للقضايا والمسائل والمفاهيم العلمية المتداولة في كتب التفسير مهم جداً في رصد التطور الحاصل في هذه المسائل نفسها والتطور الحاصل في التفسير عموماً، بحيث يمكن ملاحظة لحظات الإبداع والتجديد في تاريخ العلم، ولحظات الخمود والتقليد فيه مع ربط ذلك بأسبابه وملابساته.

 المؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية

إن أهمية هذا المفهوم الفلسفية لتاريخ العلم، إذا صحت التعبير، تتجلّى في كونه يعين على تبيّن مكانته القوّة والضعف في العلم، من أجل تدارك الخلل الذي وقع فيه، ومن أجل استئناف القول فيه على بصيرة، ومن أجل تحقيق التجديد المنشود فيه، خصوصاً وعلم التفسير من أكثر العلوم تأثراً وتأثيراً في باقي العلوم وفي واقع الناس أيضاً.

لذلك، وجب في ظل هذه الحاجة إلى دراسة تاريخ علم التفسير دراسة علمية (إبستمولوجية)، وفي ظل وجود نص تفسيري ممتد في التاريخ يمكن من رصد التطور الحاصل فيه؛ أن نفكّر في مشروع علمي متكمّل يمكن من تحقيق هذه الدراسة، إسهاماً في تطوير الدرس التفسيري.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

المقدمة

درجت الدراسات المهمّة بتأريخ التفسير وتطوره على الاقتصار على المستوى الأفقي الذي يرصد حركة العلم وتطوره عبر الوصف والتعرّيف بالمراحل التي مر بها وبأعلامه ومدارسه واتجاهاته ومصنفاته.

وغاب عن هذه الدراسات الاهتمام بالمستوى العمودي من هذا التأريخ الذي يبحث في تاريخ النظريات والمناهج التفسيرية وتطورها، وفي القضايا والمفاهيم والإشكالات العلمية التي تم تداولها في مؤلفات العلم في عصور مختلفة.

هذا مع إقرار الجميع بعلمية التفسير بدءاً بالتعريفات الاصطلاحية التي عرفت التفسير بكونه علماً يعرف به فهم كتاب الله المتنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، كما قال الزركشي في البرهان.

وحرى بعلم هذه صفتة أن يدرس تاريخه بالمنهج الذي يدرس به تاريخ العلوم، دراسة علمية (إبستمولوجية)، خصوصاً مع وجود نص تفسيري ممتد في التاريخ يمكن من رصد التطور الحاصل فيه؛ وحرى بالمتخصصين أن يفكروا في مشروع علمي متكمّل يمكن من تحقيق هذه الدراسة، وهو ما ستحاول هذه الورقة تقديم تصوّر عنه.

مقدمات

بين علمية التفسير والتاريخ له

تکاد تتفق التعريفات الاصطلاحية التي أعطيت للتفسير على اعتباره علماً قائماً الذات، فقد عرفه أبو حيان بقوله: (علم يبحث في كيفية النطق باللفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك)^(١). وقال في موضع آخر: (علم يعرف به فهم كتاب الله المنزّل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه....، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ).

وعرفه الزركشي بقوله: (... هو علم نزول الآية و سورتها وأقصاصها، والإشارات النازلة فيها، ثم تركيب مكيها ومدنيها، ومحكمها ومتشبهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصتها وعامتها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها)^(٢)؛ وعرفه الكافيجي بأنه: (علم يبحث فيه عن أحوال كلام الله المجيد من حيث إنه يدل على المراد بحسب الطاقة البشرية...)^(٣). ومن تعريفات المتأخرین قول الطاهر بن عاشور: (اسم للعلم الباحث عن بيان

(١) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، ١٢١/١.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزرکشی: ١٤٨/٢.

(٣) التيسير في قواعد علم التفسير للكافيجي: ص: ٧١.

 نحو دراسة علمية لتاريخ التفسير وتطوره

معاني الفاظ القرآن وما يستفاد منها باختصار أو توسيع^(١).

ويبدو بالنظر في هذه التعريفات الممتدة تاريخاً من القرن الثامن إلى القرن الرابع عشر أن التفسير علم له موضوع وهو: كلام الله تعالى، وغايته وهي: فهم هذا الكلام وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه، وله قواعده وأصوله ومناهجه وأدواته، ومصطلحاته وسائل ما به يكون العلم.

وإذا ثبت هذا فإن الحديث عن تاريخ التفسير هو حديث عن تاريخ العلم، بكل ما تحمله هذه العبارة أو هذا المصطلح من دلالات، وتاريخ العلم عموماً يمكن أن نميز فيه بين مستويين:

مستوى التاريخ الأفقي للعلم الذي يرصد حركة العلم وتطوره عبر الوصف والتعریف بالمراحل التي مر بها وبأعلامه ومدارسه واتجاهاته ومصنفاته.

مستوى التاريخ العمودي الذي يرصد تطور النظريات والمناهج، ويبحث في القضايا والإشكالات العلمية التي تم تداولها في العلم في عصور مختلفة.

فهل تم التاريخ لعلم التفسير بهذين المستويين؟ وهل نجد تصوراً واضحاً عن تاريخ العلوم الشرعية عموماً في تراثنا أو في ثقافتنا الإسلامية الراهنة.

(٤) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، المقدمة الأولى: ١١/١ .

 المؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية

إن الناظر في ما كتب عن تاريخ التفسير قديماً أو حديثاً يجده لا يعدو التاريخ الأفقي للعلم الذي يصف المراحل التي مر بها، وطبقات المفسرين واتجاهات التفسير ومناهجه، والمؤلفات فيه. في حين يكاد يغيب المستوى الثاني، على أهميته.

أهمية التاريخ العلمي للتفسير وصعوبته

إن أهمية المفهوم الفلسفية لتاريخ العلم إذا صح التعبير تتجلّى في كونه يعين على تبيّن مكامن القوة والضعف في العلم، من أجل تدارك الخلل الذي وقع فيه، ومن أجل استئناف القول فيه على بصيرة، ومن أجل تحقيق التجديد المنشود فيه، خصوصاً وعلم التفسير من أكثر العلوم تأثراً وتأثيراً في باقي العلوم وفي واقع الناس أيضاً. لكننا لا يمكن أن ننكر صعوبة هذا النوع من التأريخ وإشكالياته التي ترجع إجمالاً إلى سببين أساسين:

الأول: يتعلق بالدرس، فنحن نفتقد في ثقافتنا لمقومات الدرس التاريخي للعلوم بهذا المفهوم، خصوصاً نحن الباحثون في مجال الدراسات الإسلامية الذين لا نملك أدوات الدرس الإبستمولوجي، وهي صعوبة يمكن تجاوزها بامتلاك الرؤية والمنهج والأدوات الكفيلة بتحقيق هذا النوع من الدرس.

والثاني: يتعلق بالعلم المدروس، أقصد علم التفسير الذي يصعب رصد القضايا العلمية الواردة فيه نظراً لكثرتها وتشعبها، فالتفسير كان ولا يزال المجال الذي يعرض فيه المفسر - وهو المفكر والأصولي والفقهي والمتكلّم - كل ما يخدم آراءه ورؤاه سواء كان فيه البيان لمعاني كتاب

نحو دراسة علمية لتاريخ التفسير وتطوره

الله عَزَّلَ، أو ما عداه أو ما يضاف إليه، ولنا أن نتصور حجم المعارف ونوع المسائل والقضايا العلمية التي عالجها المفسرون على مر هذه القرون الطويلة وعلى مدار المساحة الجغرافية لل الفكر الإسلامي؛ لتبين مقدار صعوبة هذا التاريخ، خصوصاً وقد كنا إلى وقت قريب - ولا زال إلى حد ما - غير قادرین على الإمساك بالنص التفسيري نفسه جمعاً وإخراجاً من حيز العدم إلى الوجود (الوجود العلمي المحقق)، ثم موطنًا ومهيئاً للدرس^(١).

١- مستويات التاريخ لعلم التفسير

إننا إذن أمام نوعين من التاريخ لعلم التفسير، كلاهما مهم ومفيد للدارس المتخصص، وكل واحد منها لا ينفك عن الآخر، بل هو مرتبط به ومكمل له، ولفهم هذا التكامل نحدد معالم كل نوع وخصائصه:

١-١ مستويات التاريخ العمودي لعلم التفسير

عند التأمل في التاريخ العمودي لعلم التفسير، وبالنظر إلى خصوصية هذا العلم كونه يقدم عصارة المزج بين منهج ونظر علمي تحكمه قواعد وقوانين، وبين نص يكتنز من المعاني والدلالات والأحكام والحكم ما يستمر ويتجدد في الزمان والمكان؛ وهي مزاوجة نظر وتطبيق؛ فإن التصور العام الأولي لهذا التاريخ يقتضي التمييز بين مستويين منه:

(١) لقد كان لخروج برنامج الجامع التاريخي للتفسير الأثر الكبير في التفكير في إمكانية تحقيق هذا النوع من الدرس لما أتاحه من الاطلاع على عدد مهم من كتب التفسير المرتبة فيه ترتيباً تاريخياً.

المؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية

المستوى الأول: تاريخ النظريات والمناهج التفسيرية: حيث يُرصد التطور الحاصل في مناهج التفسير وقواعده وقوانينه عبر العصور، كيف نشأ النظر المنهجي في التفسير ومتي ظهرت ملامحه واضحة، وكيف تبلور وتطور، ومن الوسائل المعينة على رصد هذا الأمر مقدمات كتب التفسير، التي تنطوي في كثير من الأحيان على إشارات دالة في هذا الباب، خصوصا عند حديث المفسر عن مقاصد تأليفه، وعن رؤيته ومنهجه الذي يعتمد في التفسير، ويمكن أن يكون هذا المستوى من التاريخ مقدمة لعلم أصول التفسير، أو بحثا من مباحثه، كما يمكن أن نجد إشارات مهمة لهذه المسائل بين ثنيا التفسير، ويمكن أن يستفاد لاستكمال بعض فضول هذا التاريخ من كتب علوم القرآن، في المباحث المتعلقة بطبقات المفسرين ومناهج التفسير.

المستوى الثاني: تاريخ القضايا والمفاهيم العلمية، التي عالجها المفسرون في كتبهم، سواء منها ما ارتبط بشكل مباشر بمعاني الآيات ودلاليتها والأحكام المستنبطة منها، أو ما لم يتعلق مباشرة بالبيان، أي ما تعلق بالزيادات والملح والمستفادات والمناظرات والسجالات العلمية التي زخرت بها كتب التفسير.

ويمكن أن ندرس في هذا المستوى قضايا من كل المجالات العلمية التي تمت بصلة إلى أحكام القرآن وأياته: عقديّة وأصولية وفقهيّة ولغوّية وكلامية وفلسفية، ومنها ما كان له الأثر في تاريخ الفكر الإسلامي، ومنها ما استجلب معه إشكالات علوم أخرى إلى مجال التفسير، كمسائل الكلام والنحو واللغة المختلف فيها.

ولنا أن نتصور أهمية هذا المستوى من الدرس التاريخي لعلم التفسير

 نحو دراسة علمية لتاريخ التفسير وتطوره

لو تبعنا قضية واحدة على سبيل المثال: قضية علاقة الإيمان بالعمل كيف عولجت عند المفسرين في عصور مختلفة، منذ القرن الثاني إلى اليوم.

وإذا كان التاريخ للنظريات والمناهج التفسيرية يفيد في رصد جهود العلماء في وضع أسس نظرية للتفسير، وتطور هذه الجهود، وما يحتاج منها إلى تتميم أو ترميم أو إضافة؛ فإن التاريخ للقضايا والمسائل والمفاهيم العلمية المتداولة في كتب التفسير مهم جداً في رصد التطور الحاصل في هذه المسائل نفسها والتطور الحاصل في التفسير عموماً، بحيث يمكن ملاحظة لحظات الإبداع والتجديد في تاريخ العلم، ولحظات الخمود والتقليد فيه مع ربط ذلك بأسبابه وملابساته.

١- معالم التاريخ الأفقي لعلم التفسير

إن هذا المستوى من التاريخ هو الأكثر تداولًا في الدراسات التي عنيت بتاريخ التفسير، لكن الملاحظ على هذه الدراسات^(١) أنها تكتفي بالوصف التاريخي الخارجي: النشأة والمراحل والمدارس، مع الإشارة أحياناً إلى مصادر التفسير في كل مرحلة، وخصائصها، ونظرًا لكون هذا الوصف قد لا ينطلق من تصور مسبق عن المستوى العمودي من تاريخ العلم، أو على الأقل من نظر في طبيعة المادة التفسيرية في كل مرحلة

(١) أذكر منها على سبيل المثال: "تطور تفسير القرآن" لمحسن عبد الحميد، و"التفسير والمفسرون" لمحمد حسين الذهبي، و"دراسات في التفسير ورجاله" لأبي اليقظان عطية الجبوري.

المؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية

والانطلاق منها للحكم على التفسير وتوصيف كل مرحلة بدقة؛ فإن من شأن هذه الدراسات أن تنتظوي على ثغرات وربما أخطاء علمية في بيان حقيقة وضعية علم التفسير في بعض المراحل التاريخية، وقد تشكو من فراغات وبياضات في مراحل أخرى.

ولعل من أهم الثغرات التي نجدها عند بعض دارسي تاريخ التفسير: حديثهم عن ظهور مدارس التفسير في فترة زمنية جد متقدمة، كمدرسة الحجاز ومدرسة العراق والشام ومصر، مما يعطي انطباعاً بوجود معلم مميزة للتفسير في هذه المدارس في وقت مبكر، كوصف مدرسة العراق بالتحرر الفكري ومدرسة الحجاز بالتشبيث بالنقل.

إن هذه الأوصاف التي ألصقت بمدارس التفسير في القرون الأولى تحتاج إلى مراجعة، وهي في الغالب تمثل نوعاً من الإسقاط لتصنيفات لا وجود لها في تلك المرحلة المتقدمة، فالتفسير في عصر تلك المدارس، إذا صح اعتبارها مدارس بالمعنى العلمي والتقني للمدرسة، عرف نفس الخصائص، وطبع بطابع المرحلة، من حيث الطريقة والمنهج والمصادر، وإن كان هنالك اختلاف بين المفسرين من من صنفوا في مدرسة أو أخرى، فهو اختلاف يرجع إلى طبيعة ثقافة كل مفسر (لغة، مناسبات، أسباب نزول، إسرائيليات، ...)، ومؤهلاته العلمية الخاصة، ونوع المصادر الغالبة على تفسيره.

إن وضع مراحل لتاريخ التفسير يدخل ضمن ما يسمى بمفهوم التحقيق في تاريخ العلوم وهي عملية مرتبطة بتطور العلم، إذ لا يتم الانتقال من مرحلة إلى أخرى إلا بعد حدوث "إشكال" أو "أزمة" أو "حاجة" في العلم تستدعي الانتقال إلى مرحلة تتجاوز فيها الإشكالات ويستجاب فيها

نحو دراسة علمية لتاريخ التفسير وتطوره

لل حاجات، وهذا الأمر نادراً ما يشار إليه في ما كتب في تاريخ التفسير، إما بسبب غياب هذا النوع من النظر التاريخي للعلوم الشرعية، أو للاعتقاد بعدم وجود أزمة أصلاً في هذا العلم.

وإجمالاً يمكن اقتراح تصور لمعالم التاريخ الأفقي للتفسير، بناء على المقتضيات العلمية لتطور العلم، نميز فيه بين ثلاثة محطات كبرى:

١-٢-١ محطة التأسيس: وفيها وضعت أسس القول في التفسير، على يد المعاصرين لنزل القرآن الكريم (الرسول ﷺ وال الصحابة)، ومفهوم التأسيس هنا يشير إلى أن ما سيأتي بعد سيبني على ما أنتج في هذه المرحلة، أهم ما يميز هذه المرحلة خاصيتها:

- أنها تؤرخ لتفاعل الأول مع النص: أول فهم له في التاريخ، وهو فهم تأسى على التفاعل المباشر مع النص.
- أن هذا الفهم للنص تم بموازاة مع تنزله في الواقع.

وهما خصائص تتيحان لتفسير هذه المرحلة أن يكون مؤسساً وموجهاً لما سيأتي بعده، وأن يكون تفسيراً مبنياً على أكثر الطرق توصلًا لفهم سليم للنص، حيث كانت الظروف الخارجية المحيطة بالنص، التي من شأنها عادة أن تؤثر في فهمه إيجاباً أو سلباً، هي من المؤثرات المعينة على فهمه والمساعدة على تبيّنه، وهي ما اصطلاح عليه بأحوال النزول وملابساته وأسبابه.

٢-٢-١ محطة الجمع: والمقصود بالجمع هنا جمع الأقوال التفسيرية المتتممة إلى المرحلة السابقة (أقوال النبي ﷺ وال الصحابة وكبار التابعين) ونسقها مرتبة حسب ترتيب المصحف، بعد أن كانت متاثرة في صحف

المؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية

أو مروية ضمن ما يروى من العلم عن رجال تلك الطبقة. وقد اعتمد في هذا الجمع المنهج التوثيقي الحديثي بربط الأقوال بأسانيدها. وهنا لا بد من الإشارة إلى أمرين:

- أن جمع التفسير في هذه المرحلة (ق ٥٣) يعكس الحاجة إلى إخراج تفسير كامل مصنف ومرتب يمكن من فهم النص في مجموعه، مع العلم أن من العلماء من اكتفى بجمع ما انتهى إليه من أقوال بأسانيد، وهم في الغالب من المحدثين وممن لم يكن لهم اهتمام خاص بالتفسير، كعبد الرزاق (ت: ٢١١) وأدَم بن أبي إِيَّاس (ت: ٢٢٠) وسعيد بن منصور (ت: ٢٢٧) والإمام أحمد (ت: ٢٤١)، ولذلك كانت تفاسير هؤلاء غير كاملة، ومنهم من تحري جمع كل الروايات، فكانت تفاسيرهم كاملة كابن جرير الطبرى.
- أن جهود المفسرين والعلماء الذين قاموا بهذا الجمع لم تقف عند حدود الجمع والترتيب، بل صاحبها أحيا نسخة تفسير وإنتاج أقوال خاصة بهم بمستويات متفاوتة، ويتبين لنا هنا هذا الأمر بضرب المثل بتفسيرين من تفاسير هذه المرحلة: تفسير ابن أبي حاتم الرازي (ت: ٣٢٧) الذي اكتفى صاحبه بجمع ما انتهى إليه من أقوال في التفسير بأسانيدها إليه، وتفسير الطبرى (ت: ٣١٠) الذى جمع الأقوال السابقة، لكنه لم يكتفى بعرضها بل استثمرها في إنتاج تفسيره الخاص، وأضاف إليها الكثير.
- ٣-٢-١ محطة الترسيم، وهي مرحلة ما بعد الجمع التي تم فيها تداول ما جمع، وتوظيفه في إنتاج تفاسير القرون اللاحقة، وإضافة ما يمكن إضافته لهذه الأقوال، تحليلًا وتفصيلاً لها وترجيحًا بين المختلف

نحو دراسة علمية لتاريخ التفسير وتطوره

منها، أو إضافة لمستويات آخر من البيان لم تكن الحاجة إليها قد ظهرت من قبل.

وهي مرحلة لا تزال مستمرة إلى الآن، في تفاعل دائم مع حاجات ومقتضيات كل عصر العلمية منها والحضارية، ونظرًا لاستمرارية المرحلة بحيث يستغرق الحديث عن أعلامها أو مصنفاتها الكثير من الوقت، فيحسن أن نخلص إلى أهم خصائصها:

- التخلّي تدريجيًا عن الإسناد منهجاً لتوثيق الأقوال المنسولة عن السابقين.
 - ظهور مسارات تفسيرية متنوعة بتنوع ثقافات المفسرين ومذاهبهم وخصائصهم العلمية.
 - تراكم كبير لأقوال التفسير المنسولة عن العصور السابقة، وتنوع كبير في المادة التفسيرية في كتب التفسير (لغوية وفقهية وكلامية وأصولية...) وذلك بحسب طبيعة ثقافة المفسر ومذهبيته، وخصوصية العصر وحياته.
- وتتجدر الملاحظة إلى أن دخول المرحلة الآنية ضمن محطة الترسيم لا يمنع منه وجود أشكال من التفسير الجديدة المختلفة شكلاً عن التفاسير القديمة.

٣- تطور علم التفسير

جاء في معجم المقايس: (الطاء والواو والراء أصل صحيح يدل على معنى واحد، وهو الامتداد في شيءٍ من مكانٍ أو زمانٍ. من ذلك طوار الدار، وهو الذي يمتدُّ معها من فنائتها. ولذلك [يقال] عدا طوره، أي جاز الحدُّ الذي هو له من داره. ثم استعير ذلك في كل شيءٍ يتعدّى... ومن

المؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية

الباب قولهم: فعل ذلك طوراً بعد طور. فهذا هو الذي ذكرناه من الرَّمان^(١).

وفي الاصطلاح: يحمل مصطلح التطور في اصطلاح علوم الأحياء معنى الانتقال من طور إلى طور، وهو انتقال ينطوي على نمو وتغير في الوظائف، وفي الاصطلاح العام عادة ما يستعمل لفظ التطور بإزاء عدد من المفردات التي تقترب إلى حد ما من معناه، مثل: التقدم والإبداع والتجدد والتغيير. ومما نبهت عليه موسوعة لالاند الفلسفية أن كلمة "تطور" تدل على معنى التحول دون أن تتضمن بالضرورة معنى التقدم أو ما ينافق التأخر^(٢)، وهو قريب إلى حد ما من مفهوم التطور في سياقنا حيث يقصد به ما يصاحب التاريخ من تحول أو تجدد في التراث التفسيري: تنظيراً وتطبيقاً.

١-٣ مظاهر التطور الحاصل في التفسير: ملاحظات وإشكالات

إن رصد التطور الذي حصل في التفسير خلال مختلف المحطات والمراحل التاريخية التي مر بها، يتضمن تفكيك المادة التفسيرية التي تراكمت على مر التاريخ في كتب التفسير، وملاحظة الإضافات التي أضيفت كما ونوعاً، على مستوى المنهج والمضمون، أقصد المنهج التفسيري بكل ما يعنيه، والمضامين والدلائل التي فسرت بها الآيات، ولرصد هذا التطور على المستويين، وجب أولاً تحليل مكونات كل من المنهج والمضمون في كتب التفسير.

أما مكونات المنهج، والمقصود بالمنهج هنا الطريقة التي يسلكها

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس، مادة (طور).

(٢) موسوعة لالاند الفلسفية: المجلد الأول: ٣٧٩ .

نحو دراسة علمية لتاريخ التفسير وتطوره

المفسر في بيان معاني القرآن الكريم واستنباط أحكامه المختلفة، والأدوات التي يعتمد عليها في الكشف عن هذه المعاني والأحكام، فهي تمثل في:

- الخطوات التي يتبعها المفسر في عرض الآيات، والمراحل التي تمر بها العملية التفسيرية عنده.

• الأسس التي ينطلق منها المفسر في تفسيره، والتي تكون الموجه له في اختياراته التفسيرية، وهي مستمدّة من رؤيته الخاصة، وهذه الأسس تتعدد وتتنوع بتنوع الرؤى والاتجاهات (أساس فقهي، أو كلامي، أو فلسفى، أو صوفي، أو بياني، أو نحوى، أو علمي ...).

- المصادر التي يعتمدّاها والأدوات التي يوظفها في التفسير.

وأما المادة التفسيرية، أي المضامين والمواضيعات، فإن مكوناتها تتضمن:

- المكون اللغوي، وهو مكون أساس في التفسير بحكم طبيعة النص المفسر المنزّل بلغة العرب.

• المكون النثري أو الأثري، وهو المتمثل في الأقوال والمروريات التي تناقلتها كتب التفسير على مر العصور، بدءاً بأقوال المعاصرين لزوال القرآن، إلى الآن، وهذه القول نفسها عند تفكيركها يمكن أن تميز فيها بين مستويات من البيان اللغوي والعقلي.

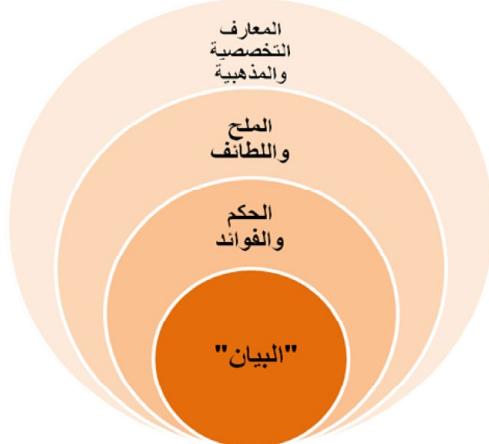
- المكون النظري الاجتهادي، وهو ما يقدمه المفسر في كل لحظة تاريخية من قول في التفسير مبني على نظر خاص واجتهاد، وهو مستويات أيضاً، تراوح بين التحليل والتعليق والتركيب لأقوال وأنظار سابقة، والترجيح بين المختلف فيها، وبين إضافة تفسير جديد.

وهنا لابد من الإشارة إلى مسألتين تتعلقان بهذه المكونات:

الأولى: أن هذه المكونات لا تحضر في كتب التفسير بشكل مفكمك، بحيث تعرض متزايدة، كل مكون على حدة، بل هي متداخلة متربطة يكمل بعضها بعضاً، وإنما مُيز بينها للتمكن من ملاحظة التطور الحاصل في كل نوع منها.

الثانية: أن هذه المكونات الثلاثة تشكل مجتمعة نواة أو صلب القول التفسيري، إلا أن الملاحظ عند التأمل في كتب التفسير وجود أبعاد وامتدادات لهذه المكونات لا تدخل في صلب العلم، أي في ما يتحقق به المقصد الأساس للتفسير وهو البيان لمراد الله تعالى من كلامه بالقدر الكافي لتمثيله وتنزيله، بل هي مما يدخل في الملح أو الزيادات العلمية والمعرفية أو العرفانية التي يضيفها المفسر إلى البيان الأساس.

ويمكن توضيح هذه المكونات وامتداداتها من خلال الرسم التالي:



نحو دراسة علمية لتاريخ التفسير وتطوره

لذلك فإن ملاحظة التطور الحاصل في التفسير من جهة المادة التفسيرية يجب أن يميز فيه بين التطور في ما هو صلب وفي ما هو زيادات وامتدادات.

١-١-٣ ملاحظات عن تطور المادة التفسيرية

بخصوص التطور الحاصل في المادة التفسيرية، فإن ملاحظته تبني على وصف طبيعة هذه المادة في العصور الأولى؛ لأن التطور يلاحظ في ما سيلحق، ومما يمكن ملاحظته عن المادة التفسيرية في المراحل الأولى للتفسير المتزامنة مع نزول القرآن واللاحقة عليه، وتحديداً خلال القرون الثلاثة الأولى؛ اقتصار المفسرين في بيان المراد من كلام الله تعالى على مستويين رئисين:

- مستوى البيان اللغوي للمفردات التي احتاجت إلى بيان في تلك المرحلة، وهي في الغالب من المفردات القليلة التداول أو التي استعملت في قبائل دون غيرها، وهو ما سيطلق عليه لاحقاً بالغريب.
- مستوى بيان المعاني التي يتوقف عليها العلم بالأحكام التي جاء بها القرآن الكريم، والتي كان من الضروري فهمها من أجل تنزيلها، وذلك لما يترتب عليها من إقامة للدين وتنزيل لأحكامه في مختلف المجالات.

ولا شك أن الاقتصر على هذين المستويين من البيان، مع تقلص حجم الحاجة العلمية لفهم العديد من المعاني والتفاصيل، بحكم وجود النبي ﷺ بين المسلمين، وقرب الطبقات التي تلت من عصر النزول، وأخذها العلم بالقرآن عن عاصره وشهد تزله؛ كل هذه الشروط

المؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية

والمعطيات جعلت التفسير المتعمي إلى هذه المرحلة قليلاً من حيث الحجم، مرتكزاً من حيث المضمون على ما له علاقة بصلب العلم.

مستويات التطور الحاصل في طبيعة المادة التفسيرية:

في ما يتعلق بالمكون اللغوي: يمكن ملاحظة تطور مسار التفسير في اتجاهين:

- التفصيل في شرح المفردات والاستشهاد على ذلك بالشعر العربي قبل الإسلام.
- إضافة مستويات أخرى من البيان اللغوي للمفردات تركيبية ونحوية وصرفية وصوتية، مع اتساع واضح في مساحة الغريب. والحق أن بداية هذا التطور حدث مع كتب معاني القرآن خلال القرن الثالث الهجري (معاني القرآن للفراء ومجاز القرآن لأبي عبيدة).
- الاستفادة من المعجم العربي، بعد ظهوره، واستشمار مادته في تفسير المفردات، وهذا نجده في فترات متأخرة من تاريخ التفسير.
- الاستكثار من اللطائف اللغوية والبيانية والنحوية، ويف适用 ذلك خاصة عند المفسرين ذوي الثقافة اللغوية والنحوية.

مثال على التطور الحاصل في المكون اللغوي:

تفسير لفظ "الصَّيْب" في قوله تعالى: ﴿أُوْكَحِبْتُ مِنَ أَسْمَاءٍ فِيهِ ظُلْمٌ﴾ ورَعَدٌ وَرَقٌ يَعْلَمُونَ أَصْنِعُمْ فِي ئَادِيمٍ مِنَ الصَّوْعِ حَذَرَ الْمَوْتُ وَاللهُ يُحِيطُ بِالْكَفَرِينَ﴾ [البقرة: ١٩]

في القرن الأول: في تفسير ابن عباس (ت: ٦٨)، في ما نقله عنه

نحو دراسة علمية لتاريخ التفسير وتطوره

الطبرى بإسناده: "... حدثني معاوية بن صالح، عن عليٍّ عن ابن عباس، قال: الصيب: المطر" ^(١).

في نهاية القرن الثالث في مجاز القرآن لأبي عبيدة (ت: ٢١٠):
 كَصِيبٌ مِّنَ السَّمَاءِ معناه: كمطر، وتقديره تقدير سيد من صاب يصوب،
 معناه: ينزل المطر، قال علقة بن عبدة:
 كأنهم صابت عليهم سحابةٌ صواعقها لطيرهن دبيبٌ
 فلا تعدلني بيني وبين معمراً سقتاك روايا المُزْنِ حيث تصوبُ
 وقال رجل من عبد القيس، جاهلي، يمدح بعض الملوك:
 ولست لأنسيٍ ولكن لملائكةٍ تنزل من جو السماء يصوب ^(٢)

في القرن الرابع: في تفسير الطبرى (ت: ٣١٠ هـ):

"قال أبو جعفر: والصيّب الفيعل، من قولك صاب المطر يصوب
 صوبًا: إذا انحدر ونزل، كما قال الشاعر:
 فَلَسْتَ لَأْنِسِيٍّ وَلَكِنْ لِمَلَائِكَةٍ تَنَزَّلَ مِنْ جَوَّ السَّمَاءِ يَصُوبُ

وكما قال علقة بن عبدة:

كأنهم صابت عليهم سحابةٌ صواعقها لطيرهن دبيبٌ
 سقيت روايا المُزْنِ حين تصوبُ
 فلا تعدلني بيني وبين معمراً

يعنى: حين تنحدر. وهو في الأصل: صيوب، ولكن الواو لما سبقتها
 ياء ساكنة صيرتا جميعا ياء مشددة، كما قيل: سيد من ساد يسود، وجيد

(١) جامع البيان للطبرى: ٣٥٢/١.

(٢) مجاز القرآن: ٣٢/١.

المؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية

من جاد يجود. وكذلك تفعل العرب بالواو إذا كانت متحركة وقبلها ياء ساكنة تصيرهما جميماً ياء مشددة" ^(١).

في القرن السادس: في تفسير الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ):

"إِنْ قَلْتَ: قَدْ شَبَهَ الْمُنَافِقُ فِي التَّمثِيلِ الْأَوَّلِ بِالْمُسْتَوْقَدِ نَارًا، وَإِظْهَارِهِ الْإِيمَانَ بِالْإِضَاءَةِ، وَانْقِطَاعَ اِنْتِفَاعِهِ بِانْطِفَاءِ النَّارِ، فَمَاذَا شَبَهَ فِي التَّمثِيلِ الثَّانِي بِالصَّيْبِ وَبِالظَّلَمَاتِ وَبِالرَّعْدِ وَبِالْبَرْقِ وَبِالصَّواعقِ؟ قَلْتَ: لِقَائِلٌ أَنْ يَقُولَ: شَبَهَ دِينَ إِسْلَامٍ بِالصَّيْبِ، لَأَنَّ الْقُلُوبَ تَحْيَا بِهِ حَيَاةَ الْأَرْضِ بِالْمَطَرِ. وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنْ شَبَهِ الْكُفَّارِ بِالظَّلَمَاتِ. وَمَا فِيهِ مِنْ الْوَعْدِ وَالْوَعْدِ بِالرَّعْدِ وَالْبَرْقِ وَمَا يَصِيبُ الْكُفَّارَ مِنَ الْأَفْزَاعِ وَالْبَلَاثِيَا وَالْفَتْنَ منْ جَهَةِ أَهْلِ إِسْلَامٍ بِالصَّواعقِ. وَالْمَعْنَى: أَوْ كَمْثُلِ ذُوِيِّ صَيْبِ. وَالْمَرَادُ كَمْثُلُ قَوْمٍ أَخْذَتُمُوهُمْ بِالسَّمَاءِ عَلَى هَذِهِ الصَّفَةِ فَلَقُوا مِنْهَا مَا لَقُوا.

إِنْ قَلْتَ: هَذَا تَشْبِيهٌ أَشْيَاءً بِأَشْيَاءٍ فَأَيْنَ ذِكْرُ الْمُشَبَّهَاتِ؟ وَهَلَا صَرَحَ بِهِ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسْكُنُمُ﴾ [غافر: ٥٨]، وَفِي قَوْلِ امْرِيَّ الْقَيْسِ:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيِّرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَىٰ وَكِنْهِ هَا الْعَذَابُ وَالْحَشْفُ التَّالِي؟

قَلْتَ: كَمَا جَاءَ ذَلِكَ صَرِيحًا فَقَدْ جَاءَ مَطْوِيًّا ذِكْرُهُ عَلَى سُنْنِ الْإِسْتِعَارَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فَرَاتٌ سَاعِيٌ شَرَابَهُ وَهَذَا مِلْحٌ أَجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢]، ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءٌ مُّتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لَرْجُلٌ﴾ [الزمر: ٣٩]، وَالصَّحِيحُ الَّذِي عَلَيْهِ عُلَمَاءُ الْبَيَانِ لَا يَتَخَطَّونَهُ: أَنَّ التَّمثِيلَيْنِ

(١) جامع البیان: ١/٣٥٠-٣٥١.

نحو دراسة علمية لتاريخ التفسير وتطوره

جميعاً من جملة التمثيلات المركبة دون المفرقة، لا يتكلف الواحد واحد شيء يقدر شبيه به، وهو القول الفحول والمذهب الجزل، بيانه: أنّ العرب تأخذ أشياء فرادى، معزولاً بعضها من بعض، لم يأخذ هذا بجزء ذاك فتشبهها بنظائرها، كما فعل امرؤ القيس وجاء في القرآن، وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامنت وتلاصقت حتى عادت شيئاً واحداً، بأخرى مثلها كقوله تعالى: ﴿مَثُلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الْتَّرَوَيْةَ﴾ [الجمعة: ٥] الآية. الغرض تشبيه حال اليهود في جهلها بما معها من التوراة وأياتها الباهرة، بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكم، وتساوي الحالتين عنده من حمل أسفار الحكم وحمل ما سواها من الأوقار، لا يشعر من ذلك إلا بما يمرّ بدفعه من الكد والتعب. وقوله: ﴿وَأَصْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الَّذِيَا كَمَّا أَنَّزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الكهف: ٤] المراد قلة بقاء زهرة الدنيا كقلة بقاء الخضر. فأما أن يراد تشبيه الأفراد بالأفراد غير منوط بعضها بعض ومصيره شيئاً واحداً، فلا. فكذلك لما وصف وقوع المنافقين في ضلالتهم وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة شبهت حيرتهم وشدّة الأمر عليهم بما يكابد من طفت ناره بعد إيقادها في ظلمة الليل، وكذلك من أخذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق.

فإن قلت: الذي كنت تقدّره في المفرق من التشبيه من حذف المضاف وهو قوله: «أو كمثل ذوي صيب» هل تقدّر مثله في المركب منه؟ قلت: لو لا طلب الراجع في قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَيْعَهُمْ فِي ءاذَاعِهِمْ﴾ ما يرجع إليه لكنك مستغلياً عن تقديره؛ لأنني أراعي الكيفية المتزرعة من مجموع الكلام فلا على أولي حرف التشبيه مفرد يتأتى التشبيه به ألم يله. إلا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الَّذِيَا﴾ [يونس: ٢٤] الآية، كيف ولـي الماء

المؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية

الكاف، وليس الغرض تشبيه الدنيا بالماء ولا بمفرد آخر يتمحّل لتقديره.
ومما هو بين في هذا قولٍ ليدي:

وَمَا النَّاسُ إِلَّا كَالْدِيَارِ وَأَهْلُهَا
بِهَا يَوْمَ حَلُوْهَا وَغَدْوًا بِلَا قُعْ

لم يشبه الناس بالديار، وإنما شبه وجودهم في الدنيا وسرعة زوالهم
وفنائهم، بحلول أهل الديار فيها ووشك نهوضهم عنها، وتركها خلاء
خاوية^(١).

والناظر في هذه النصوص يلحظ بوضوح تلك المستويات المشار
إليها آنفاً.

في ما يتعلق بالمكون النقلي: يمكن ملاحظة:

- استثمار أقوال الطبقات الأولى من المفسرين، مع تفاوت بين المفسرين
في وسائل توثيق هذه الأقوال (الأسانيد) وعموماً فقد سار التفسير منذ
مرحلة ما بعد الجمع نحو تلخيص الأسانيد ثم تخلص التفسير منها،
مع وجود استثناءات في فترات متاخرة عند من اهتم بجمع الأقوال
والمروريات في التفسير (السيوطني في الدر المنشور) أو من اهتم بتفسير القرآن
بالصحيح من النقول والآثار (بشير ياسين).
- استمرار وجود الأقوال المقتدمة في التفسير في مختلف العصور،
حيث لا يخلو تفسير مهما كانت طبيعته من نقل أقوال الصحابة والتابعين،
والمفسرين السابقين، مع تفاوت في مساحة هذه النقول والمروريات،

(١) الكشاف: ١٩٩-٢٠١.

نحو دراسة علمية لتاريخ التفسير وتطوره

وفي مدى تمحيص المرويات المنقولة ونقدتها، وهو أمر تحكمت فيه رؤية المفسر ومنهجه التفسيري بغض النظر عن المرحلة الزمنية التي يوجد فيها.

ولا نحتاج إلى عرض أمثلة عن التطور الحاصل في هذا المستوى لظهوره.

في ما يتعلّق بالمكوّن النظري الاجتهادي: أهم ملاحظة يمكن إلداوّها هي:

- تفصيل القول في الدلالات والأحكام والحكم التي ينطوي عليها النص، ومعنى التفصيل يعني وجود هذه الدلالات والأحكام عند السابقين لكن بصورة مجرّلة، والحق أنّ معظم ما يوجد من تفسير على هذا المستوى في المدونات التفسيرية المتأخرة، مبني على الأقوال التأسيسية الأولى في التفسير، لكن الحاجة دعت في العصور المتأخرة إلى بسطها وتفصيلها، والزيادة عليها أحياناً كثيرة في ضوء ما استجد في العلوم التي تمت إلى تلك الأحكام بصلة، سواء كانت أحكاماً عملية أو علمية.

- زيادة ملحوظة في حجم ونوع المعارف التي أضيفت إلى التفسير، وذلك في تناسب مع تعاقب العصور، ومذهبية المفسر وتحصصه العلمي.
- زيادة في باب النكت والزوائد المتعلقة بالمعاني والأحكام والدلالات. وقد يصرح المفسر بهذه النكت، وقد لا يصرح.

مثال على التطور الحاصل في المكوّن النظري الاجتهادي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَئْرَارَ لَفِي تَعْيِيرٍ﴾ [الأنفطار: ١٣].

المؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية

في القرنين الثالث والرابع :

في تفسير الطبرى (ت: ١٣٥٥) :

"وقوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ يقول جل ثناؤه: إن الذين بَرُوا بأداء فرائض الله، واجتناب معاصيه لفِي نعيم الجنان ينعمون فيها" ^(١).

في تفسير الماتريدي (ت: ٢٣٣٥) :

"وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ١٢﴾ وَإِنَّ الْفَجَارَ لَفِي جَحَّمِ ١٣﴾ قد ذكر أن البر أعطى ما طلب منه ما ذكر في قوله: ﴿لَيْسَ الْبَرُّ أَنْ تُؤْلُوَ وُجُوهُكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلِكُنَّ الْبَرُّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُنْفَنُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وفي هذه الآية دلالة على ما ذكرنا أن البر إذا ذكر دون التقوى اقتضى المعنى الذي يراد بالتقوى لأنه أخبر أن البر، هو الإيمان بالله واليوم الآخر، ثم ذكر أن الذي جمع بين هذه الأشياء، هو المتقى.

ثم احتاج المعتزلة بقولهم بالتلخيد في النار لمن ارتكب الكبيرة بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفَجَارَ لَفِي جَحَّمِ ١٤﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَافِلِينَ ١٥﴾ لأن من ارتكب الكبيرة فاجر، وقد قال الله تعالى: "وَإِنَّ الْفَجَارَ لَفِي جَحَّمِ" "وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَافِلِينَ" وزعموا أنه ما لم يأت بالشرائط التي ذكر في قوله: "ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر" فهو غير داخل في قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ١٦﴾.

(١) جامع البيان: ٢٤/١٨٢.

نحو دراسة علمية لتاريخ التفسير وتطوره

والأصل عندنا ما ذكرنا أن كل وعيد مذكور مقابل الوعد فهو في أهل التكذيب لما ذكر من التكذيب عند التفسير بقوله: "كلا إن كتاب الفجار لفي سجين" إلى قوله: ﴿وَلَيَوْمٍ لِّمَكْذِبِينَ﴾ [المطففين: ٧ إلى ١٠] وقال: ﴿تَلْفُحُ وُجُوهِهِمُ الظَّارِفُونَ فِيهَا كَلِحُوتُ﴾ [الأنبياء: ١٥] إلى قوله: ﴿فَكُثُرَ هَامِشَكَبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤ و ١٠٥] وإذا كان كذلك لم يجب قطع القول بالتخليد لمن ارتكب الكبيرة، بل وجوب القول بالوقف فيهم^(١).

في القرن السادس :

في تفسير الفخر الرازي (ت: ٦٠٦):

"...وه هنا نكت زائدة لا بد من ذكرها: قالت الوعيدية حصلت في هذه الآية وجوه دالة على دوام الوعيد:

أحدها: قوله تعالى: ﴿يَصَّلُونَهَا يَوْمَ الْدِينِ﴾ [آل عمران: ١٥] ويوم الدين يوم الجزاء ولا وقت إلا ويدخل فيه، كما تقول يوم الدنيا ويوم الآخرة.

الثاني: قال الجبائي: لو خصصنا قوله: ﴿وَإِنَّ الْفَجَارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٤] لكان بعض الفجار يصيرون إلى الجنة ولو صاروا إليها لكانوا من الأبرار وهذا يقتضي أن لا يتميز الفجار عن الأبرار، وذلك باطل لأن الله تعالى ميز بين الأمرين، فإذاً يجب أن لا يدخل الفجار الجنة كما لا يدخل الأبرار النار.

والثالث: أنه تعالى قال: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَافِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٦] وهو كقوله: ﴿وَمَا

(١) تأويلاً لأهل السنة: ٥-٤٠٠.

هُم بِخَرْجِنَاتِ مِنْهَا، وإذا لم يكن هناك موت ولا غيبة فليس بعدهما إلا الخلود في النار أبد الآبدين، ولما كان اسم الفاجر يتناول الكافر والمسلم صاحب الكبيرة ثبت بقاء أصحاب الكبائر أبداً في النار، وثبت أن الشفاعة للمطهعين لا لأهل الكبائر.

والجواب عنه: أنا بینا أن دلالة ألفاظ العموم على الاستغراف دلالة ظنية ضعيفة والمسألة قطعية. والتمسك بالدليل الظني في المطلوب القطعي غير جائز، بل هنا ما يدل على قولنا: لأن استعمال الجمع المعرف بالألف واللام في المعهود السابق شائع في اللغة، فيحتمل أن يكون اللفظ هنا عائداً إلى الكافرين الذين تقدم ذكرهم من المكذبين بيوم الدين، والكلام في ذلك قد تقدم على سبيل الاستقصاء، سلمنا أن العموم يفيد القطع، لكن لا نسلم أن صاحب الكبيرة فاجر، والدليل عليه قوله تعالى في حق الكفار: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكُفَّارُ الْفَجُورُ﴾ فلا يخلو إما أن يكون المراد "أولئك هم الكفارة" الذين يكونون من جنس الفجارة أو المراد "أولئك هم الكفارة" وهم "الفجارة". والأول باطل، لأن كل كافر فهو فاجر بالإجماع، فتقييد الكافر بالكافر الذي يكون من جنس الفجارة عبث، وإذا بطل هذا القسم بقى الثاني، وذلك يفيد الحصر، وإذا دلت هذه الآية على أن الكفار هم الفجارة لا غيرهم، ثبت أن صاحب الكبيرة ليس بفاجر على الإطلاق، سلمنا إن الفجارة يدخل تحته الكافر والمسلم، لكن قوله: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا يَغْيِرُونَ﴾ معناه أن مجموع الفجارة لا يكونون غائبين، ونحن نقول بموجبه: فإن أحد نوعي الفجارة وهم الكفار لا يغيرون، وإذا كان كذلك ثبت أن صدق قولنا إن الفجارة بأسرهم لا يغيرون، يكفي فيه أن لا يغيب الكفار، فلا حاجة في صدقه إلى أن لا يغيب المسلمون، سلمنا ذلك لكن

نحو دراسة علمية لتاريخ التفسير وتطوره

قوله: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا يَغَيِّرُونَ﴾ يقتضي كونهم في الحال في الجحيم وذلك كذب، فلا بد من صرفة عن الظاهر، فهم يحملونه على أنهم بعد الدخول في الجحيم يصدق عليهم قوله: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا يَغَيِّرُونَ﴾ ونحن نحمل ذلك على أنهم في الحال ليسوا غائبين عن استحقاق الكون في الجحيم، إلا أن ثبوت الاستحقاق لا ينافي العفو، سلمنا ذلك لكنه معارض بالدلائل الدالة على العفو وعلى ثبوت الشفاعة لأهل الكبائر، والترجح لهذا الجانب، لأن دليлем لا بد وأن يتناول جميع الفجار في جميع الأوقات، وإلا لم يحصل مقصودهم، ودليلنا يكفي في صحته تناوله لبعض الفجار في بعض الأوقات، فدليلهم لا بد وأن يكون عاماً، ودليلنا لا بد وأن يكون خاصاً والخاص مقدم على العام، والله أعلم^(١).

ويمكن من خلال هذا المثال أن نتبين حجم الإضافة التي أضيفت في تفسير الآية، ثم نوعها وموقعها من البيان، وأن منها ما يدخل في باب المستقادات والحكم المستنبطة، كما جاء عند الماتريدي، ومنها ما يدخل في باب النكت الكلامية كما عند الرازى، وكلا الإضافتين لا يمنع حذفهما من فهم المقصود بالآية.

٢-١-٣ ملاحظات عن تطور المنهج التفسيري

لا شك أن ملاحظة التطور الحاصل في المنهج التفسيري يحتاج إلى جهد مضاعف، إذ يتطلب استخلاص الجوانب المنهجية الموجهة للمفسر من بين ثنايا تفسيره، ولأن هذه الجوانب المنهجية إنما هي تطبيق

(١) مفاتيح الغيب: ٣١/٨٥-٨٦.

المؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية

لالأصول النظرية العامة التي تحكم رؤيته للتفسير، فإن ملاحظة التطور الحاصل فيها هي ملاحظة لمدى تطبيق هذه الأصول، ومراعاتها في التفسير.

والحق أن هذا المستوى من النظر أعمق من سابقه؛ لأنه يعني بالإجابة عن أسئلة علمية دقيقة من قبيل: كيف بنى المفسر نظريته ومنهجه التفسيري عبر عصور متالية، وما هي المؤثرات التي وجهت اختيارات المفسرين المنهجية؟؟ وما هي لحظات الإبداع أو الضمور التي عرفها المنهج التفسيري في فترات زمنية مختلفة، ومدى تأثيره، أو عدمه، بالتطور الحاصل في علوم مجاورة (كعلم أصول الفقه مثلاً)، إلى غير ذلك من الأسئلة المرتبطة بالتاريخ للعلوم بالمعنى الفلسفـي "الإبستيمولوجي" له.

ولأن الإجابة عن مثل هذه الأسئلة تتطلب ما تمت الإشارة إليه في بداية هذه الورقة من أدوات ومعطيات، فإننا سنكتفي بإلقاء بعض الملاحظات المتعلقة بالموضوع، باعتبارها إشارات تحفز الدارسين للحفر في هذه القضية:

الملاحظة الأولى: تعتبر مرحلة التأسيس في تاريخ علم التفسير مرحلة مهمة في بناء التصور النظري لهذا العلم على مستوى المنهج، كما كانت مرحلة مؤسسة للقول التفسيري على مستوى المضمون، إلا أن طبيعة المراحل التأسيسية للعلم أن الجوانب النظرية والتقييدية فيها لا تكون واضحة ولا مكتملة، ولكنها دون شك كامنة وراء الممارسات التطبيقية والعملية، إذ لا يتصور أن يفسر الصحابة القرآن الكريم، دون منطلقات وتصورات واضحة عن منهجية التعامل مع القرآن الكريم، ومن الطبيعي أن يكونوا قد أخذوا هذه التصورات عن الرسول ﷺ، فاستنبتوا من فعله ما يترجم نوعاً من المنهج في التفسير.

نحو دراسة علمية لتاريخ التفسير وتطوره

وهذا ما جعل الدارسين المعنيين بالتفسير ومناهجه، يجتهدون في البحث عن تطبيقات لأصول المنهج التفسيري في تفسيرات الرسول ﷺ والصحابة (مثل ما مثلوا به لتفسير القرآن بالقرآن) .

الملاحظة الثانية: لكي نتبين بوضوح ودقة طبيعة المنهج التفسيري في الفترات المتقدمة من تاريخ التفسير (إلى حدود عصور التدوين)، لابد من النظر في العلوم المجاورة والمكملة لعلم التفسير وخصوصا علم أصول الفقه، ويكتفي أن نشير إلى أن رسالة الشافعي أفت بسبب يتصل بمعاني القرآن الكريم. ولذلك فإن الاقتصار في رصد نشأة الظرف المنهجي والتقييدي في علم التفسير على كتب التفسير ليس سليما.

الملاحظة الثالثة: إن ملاحظة التطور الحاصل في مناهج التفسير في العصور المتعاقبة، يحتاج إلى دراسة دقيقة وفاحصة لهذا الكم الهائل من المادة التفسيرية المدونة في كتب التفسير، دراسة ترصد على الأسس ثلاثة جوانب:

- الرؤية العلمية المؤطرة لمشروع المفسر.
- الأسس والمنطلقات العلمية والمذهبية التي توجه العمل التفسيري.
- الأدوات العلمية والمصادر المعتمدة في التفسير.

خاتمة واستشراف

إن ما تم تحريره في هذه الورقة لا يعدو كونه نظرات وملحوظات تستشرف مشروعًا علميًّا يسعى إلى الإسهام في تطوير الدرس التفسيري، من جهة رصد تاريخه وتطوره، وهو مشروع -كما تمت الإشارة من قبل- يتوقف على تمحیص دقيق للتراث التفسيري في جانبيه التنظيري والتطبيقي، وبحکم ضخامة هذا التراث وتشعبه، فإن هذا المشروع يحتاج إلى جهود متضامفة من جهات متخصصة على دراية بالمجال أولاً ثم بالطراائق المنهجية المعينة على تحقيق هذا النوع من الدرس، وإسهاماً في بلورة هذا المشروع أقدم المقترفات العملية الآتية:

- ١- إنشاء خلية للبحث في نظريات تاريخ العلوم للاستفادة منها منهجياً تضم باحثين متخصصين في العلوم الشرعية وباحثين متخصصين في العلوم الإنسانية.
- ٢- وضع خطة عملية لجمع ما كتبه المفسرون وعلماء القرآن عن المناهج التفسيرية والأسس النظرية الموجهة لعمل المفسر، على مر العصور. ويمكن تكليف مجموعات من الباحثين بهذا الجمع من خلال رسائل جامعية أو خارجها.
- ٣- وضع خطة عملية لرصد القضايا والمفاهيم العلمية التي عالجها المفسرون في كتبهم، وجردها وتصنيفها مع اعتبار التطور التاريخي لها. ويمكن تكليف مجموعات من الباحثين بهذا الجمع من خلال رسائل جامعية أو خارجها.
- ٤- رصد ما أنجز من أعمال وأبحاث ومشاريع مماثلة أو مكملة لمثل هذا المشروع، والنظر في كيفية البناء عليها والاستفادة منها.

نحو دراسة علمية لتاريخ التفسير وتطوره

وبعد، فإن الدعوة إلى هذا النوع من المشاريع هي دعوة إلى إحياء روح التكامل المعرفي بين العلوم التي سرت يوماً ما في جسم العلم بمفهومه الإسلامي الأصيل، قبل أن تكون دعوة إلى تطوير الدرس التاريخي لعلم التفسير.

وفقنا الله وإياكم لما فيه الخير ورزقنا السداد في القول والعمل والحمد
للله رب العالمين

المصادر والمراجع

البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، ط: ١٩٩٣ م

البرهان في علوم القرآن للزركشي: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٨ م.

تأوiyلات أهل السنة للماتريدي، تحقيق فاطمة يوسف الخمي، مؤسسة الرسالة.

التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر.

التيسير في قواعد علم التفسير للكافيجي: تحقيق ناصر بن محمد المطرودي، دار القلم، دمشق، ط: ١٩٩٠ م.

جامع البيان: للطبرى، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركى بتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر.

الكشاف: تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، مكتبة العيikan، ط: ١٩٩٨ م.

مجاز القرآن: لأبي عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة.

معجم مقاييس اللغة لابن فارس / مادة (ط ور)

مفاتيح الغيب: للرازي، دار الفكر: ط: ١: ١٩٨١ م

موسوعة لالاند الفلسفية، أندرية لالاند، تعریب خليل أحمد خليل، منشورات عویدات، ط: ٢: ٢٠٠١ م.



Tafseer Center for Qur'anic Studies



جامعة الملك سعود
King Saud University



كرسي القراءة الكنور علوم القراءة
Chair of Qur'anic Sciences

